الببليوجرافيا، أو، علم الكتاب
دراسة فى أصول النظرية الببليوجرافية وتطبيقاتها النظرية الخاصة: الببليوجرافيا التاريخية الببليوجرافيا التحليلية*

إعداد

عبد الله حسين متولى

مدرس مساعد بقسم المكتبات والوثائق والمعلومات

كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

فى مقدمة عرضى للكتاب الأول الخاص بالنظرية العامة فى الببليوجرافيا أو علم الكتاب** ذكرت أن من يجرؤ على تحمل تبعات وضع عمل يؤرخ لعلم الببليوجرافيا ويتتبع مراحل نشأته وتطوره وأنواعه المختلفة ويحصر العلوم التى خرجت من تحت عباءته والعلوم التى ماتزال حريصة على صلة الرحم التى تربطها به، من يجروء على كل ذلك إنما هو واحد من اثنين إما جاهل بحقيقة هذه المسئولية الكبيرة وعظم حجمها أو عالم كل العلم بهذه الحقيقة ومدرك كل الإدارك لهذا الحجم ولا يختلف اثنان على أن أستاذنا الدكتور شعبان عبدالعزيز خليفة يقيناً من الصنف الثانى من الرجال لماله من تاريخ حافل بالأعمال الرائدة فى المجال والمناصب المتعددة التى تقلدها مما يؤكد أن علم الببليوجرافيا بكافة مشتملاته وعلاقاته سيكون فى يد أمينة تأصله كمصطلح وتجمع شتات المعلومات المتناثرة التى كتبت عنه وتميز بين الغث منها والسمين. وتكمن صعوبة تناول موضوع الببليوجرافيا هذا أنه يقع فى منطقة هى محط نزاع فئات متعددة كعلماء اللغة، والمؤرخين، والمكتبيين، وعلماء المعلومات، وخبراء الحاسب الآلى... وكثير غيرهم، هذا فضلاً عن تشتت وربما تناقض الكتابات حوله لذا فقد وصف الدكتور شعبان إقدامه على هذا العمل بمن أدخل يده فى عش

* شعبان عبدالعزيز خليفة. الببليوجرافيا، أو، علم الكتاب: دراسة فى أصول النظرية الببليوجرافية وتطبيقاتها: النظرية الخاصة: الببليوجرافيا التاريخية. الببليوجرافيا التحليلية. القاهرة: الدارالمصرية اللبنانية، ١٩٩٧. ٧١٩ص؛ ٢٤سم.

** شعبان عبدالعزيز خليفة. الببليوجرافيا، أو، علم المكتبات: دراسة فى أصول النظرية الببليوجرافية وتطبيقاتها: النظرية العامة/ عرض عبدالله حسين متولى. مجلة المكتبات والمعلومات العربية. س ١٦، ع ٤ (أكتوبر ١٩٩٦) ص ص ١٢٤ ـ ١٣٩.

للزنابير تفتح عليه طاقات تصب شآبيب من شواظ تتلظى لهباً ولكننى وجدت بعد استعراضى المركز لمحتوى الكتاب الأول أن أستاذنا كان نحّالاً محنكاً يعرف مداخل ومخارج الخلية ويعرف أيضاً كيف يتقى لدغات النحل أو فى أسوأ الظروف يتحمل بعض لدغاته من أجل أن يجنى لمجتمعنا نحن المكتبيين عسل مصفى لذة للشاربين ألا وهو كتاب يضم الأسس العريضة والإطار العام لعلم الببليوجرافيا.

وكانت أولى قطفتى العسل اللتين آل كاتبنا على نفسه تقديمهما لمجتمع المكتبات والمعلومات لكى يبرأوا جميعاً من حمى اللبس وخلط المفاهيم حول موضوع الببليوجرافيا هى النظرية العامة لعلم الببليوجرافيا والتى تشير إلى أنه ذلك العلم الذى يقصر نفسه على دراسة ما أنتج من قوائم والتعريف بها وتيسير الإفادة منها، كما يدرس خطوات وقواعد إعدادها وإنتاجها سواء يدوياً أو آلياً أى أنه علم قوائم الإنتاج الفكرى. أما القطفة الثانية التى يضمها الكتاب الذى نحن بصدد الحديث عن أول جزئيه فتتناول النظرية الخاصة لهذا العلم والتى تشير إلى أن الببليوجرافيا هى ذلك العلم الذى يدرس الكتاب من زواياه الثلاث: الرمز، والوسيط، والفكر أى علم الكتاب، وقد أفرزتها فرنسا فى القرن الثامن عشر وما بعده واعتنقها البريطانيون ووسعوها من بعدهم.

وفى حين تتكون القطفة الأولى أو كتاب النظرية العامة من ست رشفات أو أقسام نجد القطفة الثانية تتكون من أربع رشفات أو أسفار على حد قول كاتبنا هى: الببليوجرافيا التاريخية، والببليوجرافيا التحليلية أو المادية (الفيزيقية)، الببليوجرافيا النقدية أو النصية، والرفاهية الببليوجرافية.

ونحن الآن بصدد تقديم عرض للمجلد الأول من كتاب النظرية الخاصة والذى يضم الرشفتين أو السفرين الأول والثانى أما السفرين الثالث والرابع فمن المنتظر أن يصدرا مع أوائل عام ١٩٩٨ فى مجلد ثان يضمهما معاً. ويختص **السفر الأول:** بالببليوجرافيا التاريخية التى تعنى أساساً بتاريخ الكتاب وتطوره فى الزمان والمكان على وجه الإطلاق وذلك لرسم الصورة العامة لهذا التطور شأنها فى ذلك شأن أية دراسة تاريخية فى مجال آخر وهى تتحرك فى ثلاثة محاور تتمثل فى:

- مواد وأدوات الكتابة عبر العصور
- الكتابة أو الرمز الذى سجل به الإنسان أفكاره عبر العصور.
- المعرفة الإنسانية وكيف تطورت عبر العصور

ويتضمن هذا السفر أو الرشفة أربع مذقات أو كراريس على حد تعبير د. شعبان شغلت فى مجموعها ٢٢٥ صفحة أى نسبة ٣١٪ تقريباً من المجلد ككل.

الكراس الأول: بعنوان مواد الكتابة وأدواتها عبر العصور وقدم فيه الكاتب استعراض مفصل لمراحل نشأة وتطور مواد الكتابة من بردى، رق، وألواح طينية، ومعادن، وألواح خشبية هذا بالإضافة إلى الصخور والحجارة ولحاء الشجر الجاف مع إفراد مساحة كبيرة بعض الشئ للحديث عن سيد المواد التى كتب عليها ألا وهو الورق حيث تم استعراض ظروف نشأته والمواد المختلفة والمتنوعة التى صنع منها وأنواعه المختلفه من حيث:

أ ـ طريقة التصنيع: يدوى، آلى،

ب ـ مدى التحمل

جـ ـ مدى الجودة والصقل مثل: الفلجان اليابانى، والهندى، والصينى، والأنتيك.

د ـ الحجم والوزن:التاج العادى، ضعف التاج، أربعة أضعاف التاج.

ثم انتقل بعد ذلك للحديث عن فئة المواد غير التقليدية ـ مع تسليمنا بنسبية هذا المصطلح ذلك أن ما نعتبره الآن غير تقليدى كان وقت ظهوره قمة التكنولوجيا وغير تقليدى ـ وفى مقدمتها : المصغرات الفيلمية حيث أوضح كنهها وطريقة التسجيل عليها وفئاتها المختلفة ومزايا وعيوب كل فئه. ثم قد مثبت تاريخى متميز لمراحل تطور هذه الفئة من أوعية المعلومات على مدى قرن كامل منذ ١٨٠٢ ـ ١٩٠٠ أعقبه باستعراض مركز لفئة المواد السمعية والبصرية أوضح فيه أيضاً طبيعتها الخاصة وكيفية التسجيل على كل نوع من أنواعها الثلاثة: المواد السمعية وركز فيها على الاسطوانات والأشرطة الصوتية، المواد البصرية وركز فيها على الأفلام غير المتحركة، المواد السمعية البصرية وركز فيها على الأفلام السينمائية وأفلام الفيديو ثم اختتم حديثه فى هذا الجزء بالإشارة إلى نوعين حديثين من المواد هما ملفات البيانات الآلية، أقراص الليزر حيث ميز بين كل منهما من حيث طريقة تسجيل المعلومات، وإمكانيات البحث والاسترجاع، والمزايا والعيوب. ثم قدم استعراض مركز لأدوات الكتابة أو لأدوات تسجيل المعلومات وأنواعها ومراحل تطوير كل نوع مع تأكيده على حقيقة ارتباط كل أداة من هذه الأدوات بالوسيط أو المادة التى يكتب عليها.

أما المذقة أو الكرس الثانى:

وهو بعنوان الكتابة أو رمز التسجيل واستعرض فيه الدكتور شعبان مراحل نشأة وتطوير الكتابة والتى بدأت بالمرحلة الرمزية أو التذكيرية والتى كان فيها الإنسان يرسم خطوطاً أو رسومات معينة لتعينه على التذكير تلتها المرحلة التصويرية وفيها كانت الكتابة عبارة عن مجموعة من الصور لأشياء تكون فى مجملها موضوعاً وبالنظر إليها نعرف إلى ماذا تشير فالمرحلة الأيديولوجية وكان الأنسان فيها يرسم لوحة كاملة ليعبر عن مجموعة من الأفكار أو المعانى ثم المرحلة الصوتية أو الأبجدية التى استطاع الإنسان فيها أن يعبر عن كل صوت برمز أو علامة محددة وقد بدأ شكل الحرف بجزء من شئ مادى يبدأ اسمه بذلك الحرف ثم رويداً رويداً بعد الرمز مع التعديل والتحوير المعنوى عن شكل الشئ المادى وهكذا بدأت الأبجدية السينائية، واختتم هذا الكراس باستعراض تطور الأبجديات المختلفة مع التركيز على الخط العربى.

يليه الكراس الثالث:

ويحمل عنوان اختراع الطباعة وتطورها: وأشار فيه الكاتب إلى أن المحاولات الأولى للطباعة ظهرت فى الصين واليابان والهند فيما عرف بطباعة الكتل الخشبية حيث كان يؤتى بكتلة من الخشب على مقاس الصفحة ويكتب عليها النص عن طريق الحفر البارز ثم تغطى الكتابة بالحبر وتضغط الأوراق على هذا النص المحبر ليطبع النص على الأوراق تلاها اختراع الطباعة بالحروف المتحركة على يد الألمانى يوحنا جوتنبرج. ثم عرج بعد ذلك لبيان تطور صناعة الطباعة فى عدد من الدول مثل ألمانيا، وإيطاليا، وفرنسا، وهولندا، وأسبانيا، وانجلترا،

والولايات المتحدة الأمريكية وأخيراً مصر والعالم العربى. ثم يختتم هذا الكراس بثبت تاريخى متميز بأهم وقائع الطباعة والورق بداية من اختراع الورق عام ١٠٥م وحتى عام ١٥٠٣ وهى السنة التى مات فيها بيتر شوفر أحد أعلام الطباعة البارزين.

ثم يأتى آخر كراريس هذا السفر الأول وهو **الكراس الرابع** وهو بعنوان تطور المعرفة الإنسانية وأشار فيها الدكتور شعبان إلى أن الآراء قد اختلفت حول نشأة المعرفة البشرية ففى حين يرى البعض أن الفنون هى أول فروع المعرفة البشرية فى حين يرى البعض الآخر أن أول فروع المعرفة البشرية ظهوراً هو الفلسفة وعلم النفس بينما يرى بعض ثالث أن العلوم التطبيقية بدأت قبل غيرها من العلوم وبعيداً عن هذا الاختلاف فى الآراء حول أول العلوم ظهوراً يطالعنا أستاذنا الدكتور شعبان خليفة بجدول جامع إلى حد كبير يؤرخ لتطور الفكر الإنسانى منذ أقدم العصور حتى قرننا العشرين.

أما **السفر الثاني** فيتناول الببليوجرافيا التحليلية وهى تعنى أساساً بدراسة كيفية بناء الكتاب خطوة خطوة وبدراسة الملامح المادية أو الكيان الفيزيقى له، ويتضمن هذا السفر تسع كراريس شغلت فى مجموعها ٤٧٦ صفحة أى نسبة ٦٦٪ من المجلد.

الكراس الأول: وهو بعنوان بناء الكتاب وملامحه المادية وقد تناول فيه الكاتب عدة موضوعات ترتبط بالبناء المادى للكتاب مثل: الأبناط بأشكالها وأحجامها المختلفة، وأسلوب الجمع اليدوى والجمع الآلى، والجمع السطرى، والجمع الحرفى والطباعة المجسمة والطباعة الكهربائية، وأنواع الطابعات من الطابعة اليدوية، والطابعة البلاتينية، والطابعة الاسطوانية، والطابعة الكاملة، والطابعة الدوارة. ثم انتقل بعد ذلك للحديث عن الملامح المادية من: قوادم (وتتضمن ورق البطانة الأولى، وصفحة العنوان المجزوء، وصفحة العنوان، وصفحة الشكر، والمقدمة والتصدير، وقائمة المحتويات، وقائمة الإيضاحيات وقائمة التصويبات، وتصريح الطبع)، المتن (ويقصد به المعلومات التى أراد المؤلف أن يقدمها للقراء)، والخواتم (وتضم الحواشى والهوامش، والملاحق، وقائمة المصطلحات، وقائمة المصادر، والكشاف، وورقة البطانة الأخيرة) مدعماً كل ذلك بنماذج مصورة من النهايات وأوائل المطبوعات.

ويليه **الكراس الثاني** أو المذقة الثانية ويتناول علامات الطابعين والتى تعنى تلك العلامات التى كان الطابعون يحرصون على وضعها كنوع من إثبات الذات وإثبات الملكية وتأكيداً على أنهم يفعلون شيئاً مختلفاً عما يفعله الناسخون، وقد أشار الدكتور شعبان خليفة فى هذا الكراس إلى أن أقدم علامة طباعية وصلتنا كانت الدرع المزدوج وقد ظهرت لأول مرة سنة ١٤٥٧م على كتاب المزامير ثم تتابعت العلامات بعد ذلك وتنوعت ما بين أفرع وأغصان الأشجار، وصور الحيوانات والطيور والدوائر والأشكال الهندسية وكان منها ما هو بارز وما هو غائر ولم يفت أستاذنا أن يدعم وصفه لتلك العلامات بصور بلغ عددها سبع عشرة صورة.

أما **الكراس الثالث** فخصص لـ«صفحة العنوان» وساق فيه الكاتب تعريفاً لها ينطبق أساساً على أوائل المطبوعات وهو أنها (صفحة مستقلة تتصدر الكتاب وتقدم عنوان الكتاب الذى يليها ولا تشتمل على أى جزء من نص الكتاب نفسه) ثم دعمه بتعريف حديث لها وهو الذى يضيف إلى ما سبق أن هذه الصفحة تضم أيضاً عناصر الوصف الببليوجرافى الأخرى. كما أشار إلى أن هذه الصفحة لم يكن لها وجود بمعناها الحالى فى

عصر المخطوطات نتيجة ارتفاع ثمن المادة التى يكتب عليها وإنما كانت الممارسة المعتادة آنذاك هي كتابة عنوان العمل كجزء من مقدمة العمل مع تمييزه فى بعض الأحيان بمداد ذى لون مختلف عن لون المداد المكتوب به النص، وقد سارت أوائل المطبوعات على نفس النهج أما بقية البيانات التي تحويها صفحة العنوان كما نعرفها حالياً من سم ومكان الطابع وتاريخ الطبع فقد كان يتم إرجاؤها حتى نهاية العمل فيما يعرف بحرد المتن COLophon ومع ذلك فإن أقدم شكل يقارب الشكل الحالى لصفحات العنوان كان فى مخطوطات إيطالية أفردت فيها صفحة عنوان عامة للأناجيل الأربعة فى الكتاب المقدس المخطوط المعروف باسم «كراس أوريوس» سنة ٨٠٠م. ومن أبرز الملاحظات التى سيقت فى هذا الكراس عن صفحات عناوين فى بداية ظهورها هى أن غالبية صفحات العنوان الأولى لم تكن تتضمن فى غالبيتها إشارة إلى مكان بيع الكتب، ولقد استمر ذكر اسم بائع الكتب أو الوكيل المتعهد بالتوزيع حتى القرن التاسع عشر ومازال هذا الإجراء معمولاً به فى بعض الكتب حتى اليوم فى نهاية قرننا العشرين. أما بداية ظهور صفحة العنوان كما نعرفها اليوم فقد كان ذلك فى الربع الثانى من القرن السادس عشر حيث ظهرت بتفاصيلها الكاملة مع خلوها من الزخارف وفى حين استقر على موقع صفحة العنوان فى بداية الكتاب منذ ذلك التاريخ وحتى الآن تعدد وتباين إخراجها من فترة إلى فترة ومن مكان لآخر ومن طابع إلى طابع وهنا أيضاً دعم المؤلف حديثه عن صفحة العنوان بنماذج مصورة لصفحات عناوين من حقب مختلفة بلغ عددها واحد وخمسين نموذجاً.

ثم يأتى **الكراس الرابع** داخل هذا السفر وقد تناول فيه الكاتب «الهوامش» مشيراً إلى أن الهوامش الداخلية هى أصغر الهوامش تليها الهوامش الخارجية وأخيراً أكبرها جميعاً الهامش السفلى وإجمالاً نجده يسوق المعايير التالية وهى: أن يمثل الهامش السفلى خمس ارتفاع الصفحة ويكون الهامش العلوى نصف ذلك ويكون الهامش الخارجى خمس الهامش السفلى ويكون الهامش الداخلى أقل قليلاً من نصف الهامش الخارجى.

بعد ذلك يأتى **الكراس الخامس** وهو بعنوان العلامات المائية ويقصد بها تلك العلامة التى تحملها كل ورقة من الأوراق المصنوعة يدوياً على القالب الذى صنعت فيه والتى يمكن رؤيتها بوضوح لو رفعنا الورقة فى الضوء، ولقد بدأ ظهورها اعتباراً من القرن الثالث عشر الميلادى كعلامة تجارية أو كعلامة شخصية للمصانع التى تنتجها ومع ظهور الطباعة واتساع صناعة الورق انتشر بالتالى استخدام العلامات المائية هذه وتنوعت أشكالها تنوعاً كبيراً ما بين صور ودروع وحروف وأشكال هندسية ونباتية مع تفاوت الورق الذى يحملها أيضاً من حيث مدى الجودة ودعم أستاذنا الدكتور شعبان هذا الجزء بأكثر من مائتى نموذج مصور للعلامات المائية.

يليه **الكراس السادس** وهو بعنوان «حرد المتن فى أوائل المطبوعات» وهو فى الواقع عبارة عن دراسة مركزة عن حرد المتن فى أوائل المطبوعات من حيث المقصود به وبداية ظهوره وأهميته والبيانات التى عادة مايتضمنها مشيراً إلى أنه يعنى من الناحية اللغوية «اللمسة النهائية» أو «لمسة التشطيب» فى حين يعنى اصطلاحاً (فقرة الختام فى المخطوط أو الكتاب المطبوع) واستمر وجود حرد المتن فى أوائل المطبوعات تأثراً بنهاية المخطوطات

حيث كانت له أهمية كبرى فى غياب صفحة العنوان نظراً لما يضمه من معلومات هامة لتحديد ذاتية الوعاء. ثم استعرض المؤلف شكل ومضمون وبناء حرد المتن بشكل مقارن بين المدن الأوروبية المختلفة التى تميزت مطبوعاتها بالحرص على إبراز هذا الجزء مثل البندقية، أكسفورد، ميلانو.. إلخ. وكما ألمح إلى أن حرود المتن هذه لم تكن تقتصر فقط على الطابعين وإنما كان منها ما يوضع من قبل الناشرين أو المؤلفين أو المحررين ولفت النظر إلى أن هذا الجزء الحيوى من الكتاب قد تعرض فى أحيان كثيرة إلى التعديلات والسرقات لتحقيق مآرب شتى واختتم هذه المذقة أو الكراس بنحو سبعة عشر نموذج مصور لحرود متن متنوعة.

بعد ذلك يأتى **الكراس السابع** تحت عنوان «إنتاج المهاديات» واستعرض فيه الكاتب إنتاج المهاديات أو أوائل المطبوعات من حيث أبناط الطباعة وكيفية صنع الأحرف الطباعية والخامات المستخدمة فيها من خشب ونحاس ورصاص، ومتوسط عدد النسخ التى تصدر من كل طبعة ومدى تأثير ذلك بحجم ونوع الآلات الموجودة فى كل مطبعة آنذاك كما أشار الدكتور شعبان فى هذا السياق إلى معايير الإنتاج الطباعى سواء من حيث عدد ساعات العمل أو كم الإنتاج أو جودة المنتج من الكتب ولم ينس أيضاً فى ختام هذا الكراس ذكر عدد من الجداول الكمية الإحصائية التى تحصر المهاديات العلمية موزعة حسب الدول المختلفة بل والمدن أيضاً.

أما **الكراس الثامن** فقد اختص بـ «الإيضاحيات» وأشار فيه الكاتب إلى أن قدم الإيضاحيات من صور ورسوم يهدف من ورائها توضيح النص يعود إلى قدم الكتاب نفسه وقد تدرجت من الرمزية إلى التعبيرية ولم تظهر الإيضاحيات التى يقصد بها توضيح النص وشرحه إلا بعد قرن من ظهور الطباعة وأنها تلعب دوراً هاماً فى تحديد تاريخ إنتاج الكتاب: مخطوطاً كان أو مطبوعاً وكذلك تحديد مكان إنتاجه خاصة إذا لم يساعد على ذلك سواء صفحة العنوان أو حرد المتن، كما حصر الدكتور شعبان فى هذا الكراس أنواع الايضاحيات من حيث طريقة إنتاجها فى ثلاثة أنواع هى: الإيضاحيات البارزة (المجسمة) والإيضاحيات الغائرة، والإيضاحيات المستوية.

ثم يأتى **الكراس التاسع** آخر مُذقات أو كراسات هذا السفر أو الرشفة وتناول فيه المؤلف موضوع «تجليد الكتب» مستعرضاً مراحل تطوره المختلفة منذ العصور القديمة وحتى الوقت الحالى ويشير إلى أنه كان فى بدايته بهدف التجميل والزخرفة ثم شيئاً فشيئاً انصب الهدف منه على حفظ وحماية صفحات النص كما أشار إلى تنوع الخامات المستخدمة فى التجليد ما بين الخشب والجلد والفضة والورق المقوى سواء دعم أياً منها بالذهب أو لم يطعم، ثم عرج بعد ذلك على بيان أجزاء التجليد وحصرها فى الآتى: الكعب، والطوق، واللوح الأمامى (الجلدة الأمامية)، واللوح الخلفى (الجلدة الخلفية)، والرأس والذيل، والحافة الأمامية، وأوراق البطانة، واللسان أعقبه بيان الأنواع المختلفة من طرق التجليد والمراحل التى تمر بها كل طريقة.

وفى ختام هذا العرض المسهب لهذا العمل المتميز الذى ينم عن خبرة طويلة ومتعمقة فى مجال الببليوجرافيا وإلمام واع بدروبها وأزقتها، أرانى مدفوعاً لأن أكرر مطالبتى للدكتور شعبان خليفة بأن يسارع بإصدار خاتمة قطفات العسل هذه ألا وهى المجلد الثانى من النظرية الخاصة بالببليوجرافيا حتى يكتمل هذا الرحيق المختوم والذى يقيناً سيكون ختامه مسك بإذن الله تعالى.